التواصل ومصطلحاته في فعل التخاطب من منظور طه عبد الرحمان

د. نورالدين دريم
قسم اللغة العربي-كلية الآداب والفنون
جامعة حسيبة بن بوعلي-الشلف(الجزائر)

مقدمة :

يشمل الّتواصل كل ما يصدر عن الإنسان من قول أو كلام ، وقد اتخذّ الكلام البشري أشكالا وأجناسا متعددة ؛ تبعا لغايات وأهداف معينة يرمي إليها المتكلم ، فتنوّعت هذه الأشكال وتميّز كل واحد منها عن الآخر بمميزات انطلاقا من الهدف المتوخى للتواصل،واختلفت من جنس لآخر، حسب طبيعته ، وبحسب القضايا التي يطرحها والآليات التي يتوسل بها ، فكان بذلك التواصل من أهمّ المجالات التي تتقاطع فيها جملة من العلوم التي تعنى بدراسة السلوك الإنساني ، كالفلسفة ، والمنطق ، وعلم النفس ، وعلم الاجتماع ، وعلم اللغة ، وعلوم أخرى.

يعدّ المفكر والفيلسوف الدكتور طه عبد الرحمان المغربي من العلماء الذين مزجوا جملة من العلوم ؛ لدراسة ظاهرة أو ظواهر لغوية ، ونلمس ذلك في كتابه الموسوم بـ" اللسان والميزان أو التكوثر العقلي " ، فهو ينطلق في مؤلفه هذا من فكرة مفادها أنّ المنطق آلة للعلوم جميعا؛ لذلك كان من الواجب – في نظره – ربطه بالمعارف الأخرى، وخاصة اللسانيات والفلسفيات والرياضيات والإعلاميات.

لقد حاول في مؤلفه السابق أن يكشف عن العلاقة القائمة بين المنطق واللسانيات ، وما هذه المحاولة منه إلاّ امتداد لفيض من الدراسات السابقة له ، والتي تصبّ في هذا المجال؛ لأنّه قد أقرر بتخصصه في هذا النوع من الدراسات ، مجدّدا النظر في مسائل مخصوصة في هذا الباب ، غير مكتف بعرض ما تقرر من النظريات العلمية وخاصة الغربية منها، وقد جمع في هذا المؤلف أبحاثا منطقية لسانية تدخل في باب التأليف الاجتهادي الذي انماز به ، وقد وجدناه بالفعل كذلك ، فهو لا يقلّد كاتبا ولا ينقل عن غيره ، ولا يشرح كلام غيره ، فهو يخترع المفاهيم – كما عبّر هو – و يولّد المصطلحات.

ويظهر ذلك جليّا في أبرز قضية لغوية شغلت بال الدارسين حديثا وهي " التخاطب " ، فهو يرى أنّ التخاطب بنية تفاعلية تقوم على ضربين من المبادئ ، مبادئ تواصلية و أخرى تعاملية.

لقد فصّل الدكتور القول في قضية التواصل– أحد ركني التخاطب -، لمّا رأى أنّ هذا المصطلح كثير التداول في قطاعات معرفية مختلفة ، يكتنفه في أحايين كثيرة العموم و الإجمال .

نحاول من خلال هذه الدراسة الموسومة بـ " **التواصل ومصطلحاته في فعل التخاطب من منظور طه عبد الرحمان** " أن نبيّن وجهة نظره في هذه القضية ، وما قاله فيها ؛ لأنّه قد أضفى على دراسته نوعا من الجدّة حين مزج بين علوم مختلفة (المنطق ، اللسانيات ، علم الأصول ، ...) لدراسة هذه الظاهرة اللسانية ، و نحاول أيضا أن نحصي المصطلحات التي اصطنعها لنفسه في معالجة ظاهرة التواصل ؛ أي نحاول أن نبرز جانب التأليف الاجتهادي لدى الدكتور طه عبد الرحمان في هذه الظاهرة و المصطلحات التي استخدمها.

1- مفهوم التواصل ، وما يتعلّق به :كثرت تعاريف التواصل (ونقصد التواصل اللغوي دون غيره من الأنواع الأخرى للتواصل) ، وهي إن اختلفت في اللفظ والصياغة ، فقد اتّحدت في المفهوم ، ويعنى به " ذلك النوع من التفاعل الذي يتم عبر الألفاظ أو الألحاظ أو الرموز أو الإشارات، والذي يؤدي إلى تخفيف التوتر أو إلى هدنة معلنة أو غير معلنة، أو على عكس ذلك إلى زيادة التوتر"[1].

تعدّ الوظيفة التواصلية ، من أهم وظائف اللغة ؛ لأنّها تتيح لمستعمليها الدخول في علاقات مع بعضهم بعض ، كما أنّها " تتعلق بالبعد الاجتماعي للمتخاطبين وفيها يتم تحديد زاوية المتكلم ووضعه وأحكامه وتشفيره لدور علاقته في المقام، وحوافز قوله لشيء ما في علاقته مع مخاطبه "[2].

إنّ التواصل يقتضي متكلما (مرسلا) يرسل خطابا في اتجاه سامع (مرسل إليه) عبر قناة، تعمل على الربط بينهما ، وهي محور عملية التواصل ؛ " لأنها مكان تمظهر السنن ،في شكل رسالة، ومركز الاتصال الفيزيقي بين المتكلمين "[3]. وفي التواصل اللغوي تكون اللغة هي القناة ، يضاف إليها استحضار قانون السنن في سياقات التواصل المختلفة ، وهذا القانون هو أحد المكونات الجوهرية في كلّ سيرورة تواصلية لفظية بحيث يضمن استمرار التواصل ؛ لأنّه يقوم على عملية التشفير وفكّه في الخطابات المختلفة ، " فالشرط الأول إذن لقيام التواصل، هو تسنين الأخبار Codage؛ أي تحويل الرسالة المدركة والمحسوسة إلى نظام من العلامات أو إلى سنن من خصائصه الجوهرية ؛ كونه متفقا عليه من الناحية التنظيمية و التصنيفية "[4].

ولا بدّ أن يكون السنن مشتركا ومتبادلا في الآن نفسه ،بين المتكلم والسامع، لضمان سيرورة تواصلية ، تنقل خلالها الرسالة من مرسل إلى مرسل إليه، يملكان بشكل مشترك على الأقل الشفرة الضرورية لتداول هذه الرسالة.

أمّا عناصر الّتواصل فتظهر بصورة أوضح ، في النموذج الذي اقترحه رومان جاكبسون، والذي لقي رواجا لدى اللسانيين البنويين ،وعلى رأسهم إيميل بنفينست ، وفي ما يلي مخطط التواصل كما يراه جاكبسون[5]:

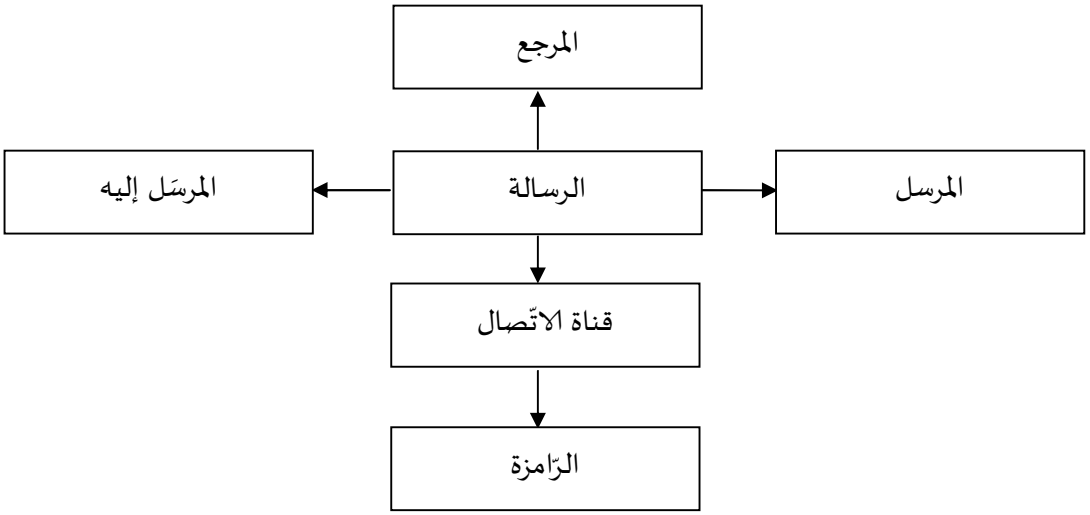

تكتسي جلّ العناصر التي تشكل العملية التواصلية - في نظر جاكبسون - أهمية بالغة في التواصل ، فلا يمكن الاستغناء عن عنصر من عناصرها ؛ لأنّها " العوامل المكونة لكل سيرورة لسانية ولكل فعل تواصلي لفظي إن المرسل يوجه رسالة إلى المرسل إليه، ولكي تكون الرسالة فاعلة، فإنها تقتضي، بادئ ذي بدء، سياقا تحيل عليه(وهو ما

يدعى أيضا"مرجعا" باصطلاح غامض نسبيا)، سياقا قابلا لأن يدركه المرسل إليه، وهو إما أن يكون لفظيا أو قابلا لأن يكون كذلك؛ وتقتضي الرسالة بعد ذلك، سننا مشتركة، كليا أو جزئيا، بين المرسل والمرسل إليه)أو بعبارة أخرى بين المسنن ومفكك سنن الرسالة) وتقتضي الرسالة أخيرا، اتصالا، أي قناة فيزيقية وربطا نفسيا بين المرسل والمرسل إليه، اتصالا يسمح لهما بإقامة التواصل والحفاظ عليه"[6].

لقد احتذى أصحاب نظريات الّتواصل بنموذج التواصل عند جاكبسون المسمّى بالسنني (Modèle Codique)؛ لأنّهم وقفوا فيه على خاصية أساسية تحقق التواصل المرغوب ، هي ارتكازه على حركتي وضع شفرة وفكّها، إلاّ أنّ هذا النموذج يبقى تقليديا ، إذا ما قورن بما اقترحه كلّ من **بول قرايس ودايفيد لويس** ، حين عدّا الّتواصل إنتاجا وتأويلا للمعطيات؛ لأنّه إجراء يهدف إلى وضع كل من المرسل و المرسل إليه في سياق تعالج فيه المعلومات ، ولهذا سمي منوالا استدلاليا غايته تحقيق الإفادة التي تلازم الحدث التواصلي.

اهتمت الّنظريات والمناهج باختلاف توجّهاتها ، بدراسة عملية التواصل وقد ركّزت اهتمامها بعنصر من عناصرها، إلاّ أنّ التداولية – وفي زمن متأخر – اهتمت بجميع عناصر العملية التواصلية ؛ لأنّها تدرس الّلغة، وهي تؤدي وظيفتها التخاطبية ، وفيها تركز على بحث التفاعل بين أطراف الخطاب المختلفة (المرسل، المرسل إليه، الرسالة ،السياق) فالتداولية إذن تدرس "علاقة النشاط اللغوي بمستعمليه، وطرق وكيفيات استخدام العلامات اللغوية بنجاح، والسياقات والطبقات المقامية المختلفة التي ينجز ضمنها الخطاب، والبحث عن العوامل التي تجعل من الخطاب رسالة تواصلية واضحة و ناجحة "[7] ، وأثناء دراسة العلاقة بين العلامات ومستعمليها ؛ لإنجاز خطاب ما في سياق معيّن ، يتمّ الجمع بين جانبين مهمّين هما التواصل و التفاعل[8]، ويظهر التفاعل حين يتبادل المرسل و المرسل إليه أطراف الحديث ، في سياق التحاور أو سياق استفسار (سؤال وجواب) ، ممّا يثار أثناء العملية التواصلية ،والهدف من ذلك كلّه ، هو إنتاج معرفة مشتركة بين طرفي العملية التواصلية (المرسل و المرسل إليه) " فكّلما كان تقاسم المعلومات كان ذلك شرطا لحدوث التواصل "[9] ، الذي يهدف إلى التأثير في المتلقي أو إقناعه .

2- التواصل عند طه عبد الرحمان : يؤكد الدكتور طه عبد الرحمان على حقيقة مفادها ، أنّ مصطلح التواصل تتجاذبه عدّة حقول معرفية ؛ ممّا أضفى عليه سمة العموم و الإجمال في كثير من المناسبات ، حتّى أنّه لم يسلم - في نظره – من الغموض والإبهام في بعض السياقات التي استخدم فيها، يقول مبيّنا ذلك : إنّ " لفظ التواصل يظل ، على تداول الألسنة له وورود في قطاعات معرفية مختلفة ، لفظا يكتنفه العموم والإجمال ، إن لم يكتنفه الغموض و الإبهام ؛ ذلك أنّنا لو أعملنا فكرنا في استعمالاته المختلفة ، لوجدنا أنّه قد يدّل على معان ثلاثة متمايزة فيما بينها "[10]، أمّا معانيه الثلاثة كما حدّدها طه عبد الرحمان فهي[11] :

المعنى الأول : نقل الخبر ، واصطلح عليه طه عبد الرحمان بـ " الوصل " ؛ لأنّ هذا المصطلح - كما يرى – يفيد معنى الجمع بين طرفين بواسطة أمر مخصوص ، والطرفان هما : المرسل و المرسل إليه ، والوصل بينهم " لا يكون إلاّ بواصل ، و الواصل هنا هو بالذات الخبر "[12] . ، فكأنّما الخبر جسر ذو نقطتي ارتكاز ، الأولى المرسل ، و الثانية المرسل إليه.

المعنى الثاني : نقل الخبر مع اعتبار مصدر الخبر الذي هو المتكلم ، واصطلح عليه الدكتور بـ "الإيصال"، ولم يذكر الدكتور سبب اختياره لهذا المصطلح ، وربما عمد إلى ذلك ؛ بحجة أنّ دور المتكلم في منطلق العملية التواصلية ، يتمثل في العمل على إيصال المعلومة للمتلقي (المستمع).

المعنى الثالث : نقل الخبر مع اعتبار مصدر الخبر الذي هو المتكلم واعتبار مقصده ، الذي هو المستمع معا ، واصطلح عليه بـ " الاتّصال " ، والحال نفسه مع هذا المصطلح الذي انتقاه الدكتور ؛ ليدل على هذا المفهوم ، وربما يرجع سبب تفضيله لهذا المصطلح إلى أنّ غاية المتكلم في سياق التخاطب ، هي تحقيق تواصل إيجابي مع المتلقي (المستمع) ، ممّا يحدث تناغما تواصليا بينهما.

1-2 – التواصل والحجاج: يرى الدكتور أنّ التواصل و الحجاج متكاملان أثناء فعل التخاطب ، ففي نظره " لا تواصل باللسان من غير حجاج ، و لا حجاج بغير تواصل باللسان "[13] ، ويمثل لهذا الاستنتاج بالمثال الآتي : اعلم أنّ الشرق مهد الحضارة. فحين يتلقى هذا الخطاب متلقّ لا يعلم مضمونه على وجه التحديد ، قد لا يسلّم به ، وهو في هذا الحال أمام اعتراض لا بدّ له من يأتي بدليل ليدفع عن نفسه هذا الاعتراض ، فيجيب : لقد ضم الشرق أقدم مراكز الحضارة وأكثرها عددا .

لمّا رأى طه عبد الرحمان أنّ كلّ حجاج يعدّ تواصلا ، صاغ ثلاثة نماذج تواصلية للحجّة[14] ،وهي:

- **النموذج الوصلي للحجة** : تكون فيه الوظيفة التواصلية للحجة وظيفة وصل ، ويستند إلى نظرية الإعلام ؛ ليجرد الحجاج من الفاعلية الخطابية ، وذلك بمحو آثار المتكلم و السامع ، و إظهار المضمرات الخطابية مع الجمود على الخصائص الترتيبية و الصورية للحجاج ، فتكون نتيجة هذا التجريد تحويل الحجاج إلى بنية دالية مجرّدة.

- **النموذج الإيصالي للحجة :** تكون فيه الوظيفة التواصلية للحجة وظيفة إيصال ، لأنّ الحجة في هذا النموذج ينظر إليها على أساس أنّها فعل استدلالي يتوجه به المتكلم إلى السامع ، ويستند إلى نظرية الأفعال الكلامية ؛ مشتغلا بدور المتكلم في الفعالية التخاطبية ، وذلك بالتركيز على القصدية من جهة ارتباطها باللغة ومن جهة تكونها من طبقات قصدية متفاوتة ، فتكون نتيجة هذا الاشتغال الواقف عند المتكلم جعل الحجاج بنية دلاليّة موجَّهة.

- **النموذج الاتّصالي للحجة** : تكون فيه الوظيفة التواصلية للحجة وظيفة اتّصال ، والحجة في هذا النموذج ينظر إليها على أساس أنّها فعل مشترك بين المتكلم و المستمع ، يجمع بين توجيه المتكلم وتقويم المستمع ، ويستند إلى نظرية الحوار، مشتغلا بدور المتكلم و المستمع معا في الفعالية التخاطبية ،فيركز على علاقة التفاعل الخطابي ، مبرزا أهمية التزاوج القصدي والوظيفي والسياقي ودور الممارسة الحية التي تنبني على الأخذ بالمعاني المجازية والقيم الأخلاقية ، فتكون ثمرته على هذه الصورة إحياء الحجاج وجعله بنية تداولية يجتمع فيها التوجيه المقترن بالأفعال والتقويم المقترن بالأخلاق.

2- 2- التواصل والكلام : يرى طه عبد الرحمان أنّ ذكر لفظ الكلام يحيل إلى معنى التواصل ، بل إنّه يؤكد على أنّ الكلام أصل في كل تواصل ، حتّى وإن تعددت طرائق التواصل غير كلامية التي هي في الأصل موضوعة وفق قانونه ، وتفهم انطلاقا من مقتضاه ، يقول " كلّما وقفنا على لفظ الكلام ، تبادرت إلى أذهاننا دلالته على معنى التواصل ،

حتّى إنّ ما سواه من وسائل التواصل المعلومة ، إن حركات ملحوظة أو إشارات مبثوثة أو رموز منظومة ، تبدو لنا موضوعة على قانونه ومفهومة على مقتضاه ، أو قل إنّ الكلام أصل في كل تواصل ، كائنا ما كان "[15].

أمّا حقيقة الكلام عنده فليست مجرد النطق بألفاظ ذات نظم معين ودلالة محدّدة ، وإنّما يتأسس على قصدين يتصلان بالغير ، يقول موضّحا ذلك " لكن حقيقة الكلام لا تقوم في مجرد النطق بألفاظ مرتبة على مقتضى مدلولات محدّدة ؛ لأنّ هذا النطق قد يقع عرضا في حال النوم والترتيب قد يأتي صدفة كما في حال اللعب والدلالة قد تنتزع عنوة كما في حال فلتة اللسان ، وإنما حقيقته كامنة في كونه ينبني على قصدين اثنين : أحدهما يتعلق بـ " التوجه إلى الغير ، و الثاني يتصل بـ " إفهام الغير "[16] ، أي لا بدّ أن يكون هناك متلق يوجّه إليه الكلام ولا بدّ على المرسل أن يسعى سعيا حثيثا لإفهام هذا المتلقي.

بعد أن بيّن طه عبد الرحمان أنّ الكلام أصل في كل تواصل ، وأنّه ينبني على قصدين اثنين ، شرع في بيان هذين القصدين ، ورأى أنّ كل منهما يرتبط بالمتكلم بدرجة أكبر. وفيما يأتي تفصيلهما عنده[17]:

القصد الأول :مقتضاه أنّ المنطوق به لا يكون كلاما حقا حتّى تحصل من الناطق إرادة توجيهه إلى غيره ؛ وما لم تحصل منه هذه الإرادة ، فلا يمكن أن يعدّ متكلما حقا ، حتّى ولو صادف ما نطق به حضور من يتلقفه ؛ لأنّ المتلقف لا يكون مستمعا حقا حتى يكون قد ألقي إليه بما تلقف ، مقصودا بمضمونه هو أو مقصودا به غيره بوصفه واسطة فيه أو قل حتّى يدرك رتبة المتلقي ، فالمتلقي هو عبارة عن المتلقِف الذي قصده الملقي بفعل إلقائه.

ويمكن أن نمثّل لهذا القصد بالمخطط الآتي :

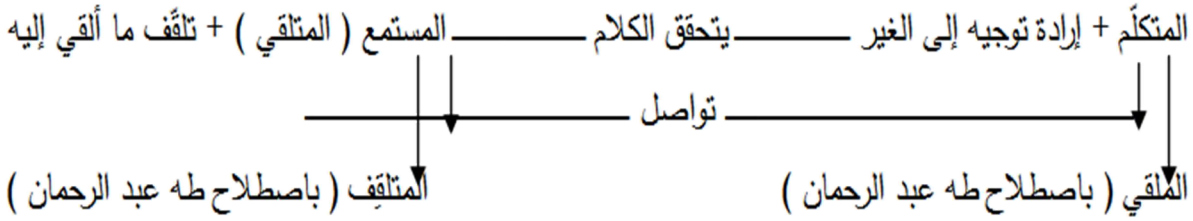

أمّا القصد الثاني : فلا يكون المنطوق به كلاما حقا حتّى تحصل من الناطق إرادة إفهام الغير ، وما لم تحصل منه هذه الإرادة ، فلا يمكن أن يعدّ متكلما حقّا حتّى ولو صادف ما لفظ به فهما ممن التقطه ، لأنّ الملتقط لا يكون مستمعا حقا حتّى يكون قد أُفهم ما فَهِم ، سواء أوافق الإفهام الفهم أم خالفه ، أو قل حتّى يدرك رتبة الفاهم ، و الفاهم هو عبارة عن الملتقط الذي قصده المفهم بفعل إفهامه. ويمكن أن نمثّل لهذا القصد بالمخطط الآتي :

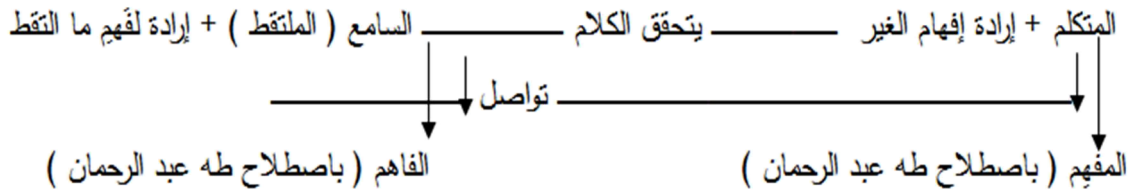

ينبني على ما تقدّم - في نظر طه عبد الرحمان - أنّ كلّ منطوق به يصدق عليه مصطلح " كلام " ، هو الكلام الذي قصد به المتكلم أن يتوجه به إلى الغير ، وأن يقصد إفهامه بما نطق معنى من المعاني ، وهو ما سمّاه بـ " الخطاب " ، يقول " فاعرف أنّ المنطوق به الذي يصلح أن يكون كلاما ، هو الذي ينهض بتمام المقتضيات التواصلية الواجبة في حقّ ما يسمّى خطابا ، إذ حدّ الخطاب أنّه كل منطوق به موجّه إلى الغير بغرض إفهامه مقصودا مخصوصا "[18]. فالخطاب عنده أشمل من الكلام ، إذ إنّ المنطوق يجب أن ينبني على قصدين اثنين (توجيهه إلى الغير وإفهامه معنى ما) ؛ ليكون كلاما نتواصل به ، لإرسال خطاب ما ، يقتضي وجود مرسل ومرسَل إليه ، " فالتخاطب هو الأصل في الكلام "[19].

2- 3- التواصل و التخاطب: إنّ العلاقة التخاطبية - في نظر طه عبد الرحمان – هي البانية لحقيقة الكلام ،وهي " تتحدد من جانب المتكلم بالتوجه إلى المستمع ،وبإفهامه مراده ، ومن جانب المستمع بالتلقي من المتكلم وفهم مراده ،فاعلم أنّ هذه العلاقة لا يمكن أن تنحصر في عملية نقل مضمون القول من أحد الطرفين إلى الآخر ، نظرا لأنّ هذا النقل قد تسدّ فيه الآلة مسد الإنسان متى كان لا يزيد عن تحويل فائدة "[20]، وهذا النقل ما هو إلا جانب من جوانب متعددة تدخل في تشكيل العلاقة التخاطبية ، والنقل الذي يمارسه المتكلم في نظر عبد الرحمان نوعان[21]:

أحدهما : النقل الصريح : وهو ما تعلّق بالمعاني الظاهرية والحقيقية المستقلة عن مقامات الكلام .

وثانيهما : النقل الضمني : وهو ما تعلّق بالمعاني المضمرة و المجازية غير مستقلة عن هذه المقامات.

إنّ المتكلم لا يمارس النقل أثناء التخاطب إلاّ على مقتضى الجمع بين نوعيه (الصريح و الضمني) ؛ ولهذا السبب سمّى طه عبد الرحمان نقل المتكلم بـ " التبليغ " ؛ ليميّز بين النقل الإنساني و النقل الآلي ، وعرّفه بقوله " هو عبارة عن نقل فائدة القول الطبيعي نقلا يزدوج فيه ، الإظهار و الإضمار "[22] ، وقد خلص من هذا المفهوم إلى أنّ المتكلّم ليس ذاتا ناقلة إنّما هو ذات مبلِّغة ، وعلى هذا لا يجوز أن يماثل بجهاز للإرسال ، أو المرسِل – كما عبّر طه عبد الرحمان - .

يرى طه عبد الرحمان بأنّ التبليغ هو أحد جوانب العلاقة التخاطبية، كما أنّه يمثّل الجانب التواصلي منها، " فكل تخاطب تواصل ، لكن لا يصح أن نقول إنّ التخاطب ليس إلاّ تواصلا ، فقد يوجد التواصل بين طرفين ولا يوجد تخاطب بينهما ؛ فيجوز أن يوصّل المبلِّغ فحوى القول إلى غيره ، ولا ينفعه به من أي وجه من الوجوه ، كما يجوز أن يتوصّل المبلَّغ إليه بهذا الفحوى من غير أن ينتفع به "[23]. وبهذا النظرة يبدو أنّ التواصل عنده أشمل من التخاطب ، فهو يرى أن التخاطب الذي لا يحقق منفعة لا يصطلح عليه بالتخاطب ، واصطنع له مصطلح " الخطب

" اعتمادا على دلالته المعجمية ، يقول " و التخاطب الذي لا نفع معه لا يكون تخاطبا ، وإنّما يكون " خطبا " ، علما بأن مدلول الخطب ، هو أنّه الأمر الشديد الذي يكثر فيه القول "[24]، وفي القاموس المحيط الخطب : بمعنى الشأن والأمر صَغُرَ أو عَظُمَ[25]. ويوسع طه عبد الرحمان من مفهوم التخاطب ويراه تعاملا ، يقول " فليس التخاطب تواصلا فقط ، بل هو أيضا تعامل "[26].

يؤكد الدكتور على شيء مهم يتعلّق بالمتكلّم وهو مراقبته لفعل قوله ، وهو ما اصطلح عليه بالتهذيب ، ومعناه أن يبتعد عن كل ما يشين قوله أخلاقيا من جهة الدلالة في نظر المستمع ، ويعرّفه قائلا " التهذيب هو عبارة عن العمل الذي يخلّص القول الطبيعي مما يعيب دلالته وينزع عنه أسباب الانتفاع به "[27]. وبهذا يرتقي المتكلم – في نظره – من كونه ذاتا مجرّدة للتبليغ إلى ذات محمولة على التهذيب ، ويكون التهذيب على درجتين مختلفتين من تورّثان نوعين متباينين من الانتفاع ، وقد اصطلحا عليهما بـ " التأدب " و التخلّق "[28]:

أمّا التأدب : فهو أن يأتي المتكلم بفعل القول على الوجه الذي يبرز به دلالته القريبة ، ويقوي أسباب الانتفاع العاجل به.

وأمّا التخلق : فهو أن يأتي المتكلم بفعل القول على الوجه الذي يبرز به دلالته البعيدة ، فضلا عن اعتبار دلالته القريبة ويقوي أسباب الانتفاع الآجل به ، فضلا عن اعتبار الانتفاع العاجل به.

فالتخلق إذن يبرز الدلالتين معا (البعيدة و القريبة) لقول المتكلم ، ويدعم الانتفاع بهما في الزمنين الآجل و العاجل وهو بهذه الخاصية " يعلو على الأول رتبة ، إذ يجمع بين الجهة البعيدة و الجهة القريبة من الدلالة مع تقديم الأولى على الثانية ، كما يجمع بين الجانب الآجل و العاجل من الانتفاع مع تقديم الأول على الثاني "[29]. يمكن أن نلخّص ما سبق في المخطط الآتي :

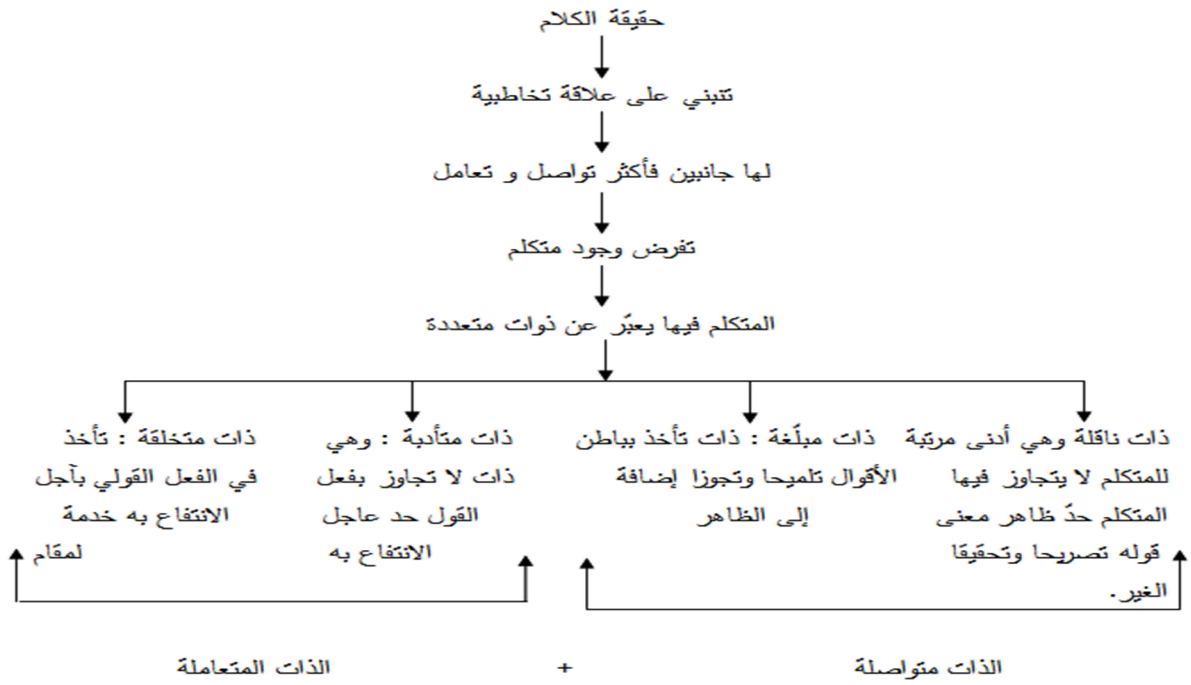

2- 4 - التواصل والمبادئ التي تتدخل في عملية التخاطب: شغل البحث في موضوع التخاطب بجانبيه التواصلي (التبليغي) والتعاملي (التهذيبي) ، اهتمام كل من المناطقة و الفلاسفة والاجتماعيين ، والنفسانيين ، واللسانيين ... وقد أولت التداوليات حديثا النظر فيه ؛ لأنّه ارتبط بدراسة الاستعمالات اللغوية متعلقة بمقامات الكلام[30]

عكف طه عبد الرحمان على نقد جملة من المبادئ التي تتدخل في عملية التخاطب والتي ذكرها بعض اللسانيين المحدثين، بعد أن استعرضها وحلّلها[31]، في كتابه التكوثر العقلي، ومن بينها :

- **مبدأ التعاون عند بول غرايس**[32] : هو أول مبدأ تداولي للتخاطب ، ويعدّ فضلا عن مبدأ الاستلزام الخطابي أساسا في كل عملية التخاطب ، شرحه طه عبد الرحمان وقدّم قواعده من منظور غرايس ، ثمّ خلص في نهاية عرضه إلى ما يلي إنّ " نظرية غرايس تجعلنا بين أمرين اثنين : إمّا أن نتبع القواعد المتفرعة على مبدأ التعاون ، وإمّا أن نخرج عنها ؛ فإن اتبعناها ، حصّلنا فائدة قريبة ، هي أقرب إلى ما أسماه الأصوليون بـ " المنطوق " ،وإن خرجنا عن هذه القواعد ، حصلنا فائدة بعيدة ، هي أقرب إلى ما سمّاه الأصوليون بـ " المفهوم أو المسكوت عنه أو دلالة الدلالة "[33] ، يظهر من قوله بأنّه يؤثر الاحتمال الثاني ؛ لأنّه يميل فيه إلى القول بدلالة المفهوم لا المنطوق باصطلاح الأصوليين ، و " لمّا كانت دلالة المفهوم – ضمن أصول غرايس – تشمل كل أنواع الاستنتاجات البراغماتية التي ليس لها صلة بالنسبة الخارجية للكلام ، فإنّ عددا كبيرا من أنواع دلالة المفهوم – بالمعنى الغرايسي للمصطلح – سيدخل في نطاق دلالة المنطوق في استخدام الجويني – أحد علماء الأصول – للمصطلح "[34]. ويبدو ذلك جليّا بالنظر في القواعد التي فرّعها غرايس عن مبدأ التعاون ؛ لأنّها – كما عبّر طه عبد الرحمان – تتنزل منزلة الضوابط التي تضمن لكل خطاب الوضوح ، بحيث تكون فيه المعاني بين المتكلم والمستمع صريحة وحقيقية ، ولكن ليس بالضرورة أن تكون معاني كل خطاب حقيقية ، فقد تكون في بعض الأحيان ضمنية ومجازية.

- **نقده لهذا المبدأ :** على الرغم من اعتراف طه عبد الرحمان بمبدأ التعاون لدى غرايس وما قدمّه من إسهامات كان لها كبير الأثر في تطوير التداوليات اللغوية ، وفتح باب الدراسات المتنوعة والتي تعلّقت في الأساس بموضوع التواصل الإنساني ، إلاّ أنّه اعترض على هذا المبدأ ، من باب أنّه أهمل الاهتمام بالجانب التهذيبي في التخاطب ، يقول " إنّ مبدأ التعاون والقواعد المتولدة منه لا تضبط إلاّ الجانب التبليغي من التخاطب ، أمّا الجانب التهذيبي منه فقد أسقط اعتباره إسقاطا "[35]، ويبدو أنّ هذا الاعتراض في محلّه لأنّ الدكتور قد ركّز على أهمية الجانب التبليغي – كما مرّ – في العملية التخاطبية ، وما لها من تأثير في الخطاب.

- **مبدأ التأدب واعتبار جانب التهذيب عند روبين لاكوف**[36]**:** مقتضاه أن يلتزم كل من المتكلم و المخاطب بضوابط التهذيب ؛ لتحقيق الغاية التي من أجلها دخلا في الكلام ، دونما تقصير في الالتزام بضوابط التبليغ.

- **نقده لمبدأ التأدب عند لاكوف :** لمّا عدّد طه عبد الرحمان القواعد التي تتفرع عن هذا المبدأ ، قدّم نقدا مؤسسا له، يبرز مواطن الخلل فيه ، فهو يرى أنّ قواعد هذا المبدأ تتفاوت في القوة فيما بينها ، فقاعدة التشكك مثلا أقوى من قاعدة التعفف ، ومبدأ التفاوت في القوة بين قواعد هذا المبدأ يفضي إلى الانتقال من مستوى تخاطبيّ إلى مستوى تخاطبيّ آخر ، يقول " ولمّا كانت هذه القواعد تتفاوت قوة فيما بينها ، فإنّ القيام ببعضها قد يسقط العمل بالبعض الآخر ، فحيث تصلح قاعدة التودد ، فقد لا تصلح قاعدة التشكك ، وحيث تفيد قاعدة التعفف ،

فقد لا تفيد قاعدة التشكك ...و متى وقع اتّباع قاعدتين في مخاطبة واحدة ، لزم التسليم بأن العلاقات بين المتكلم و المخاطب قد انتقلت من مستوى تخاطبي إلى مستوى تخاطبي غيره "[37].

ولم يغفل الدكتور الحديث عن إمكانية حصول تعارض بين قواعد هذا المبدأ ، و قواعد مبدأ التعاون عند غرايس ، " فيتقدم العمل بها على العمل بتلك "[38] ، ونكون بذلك قدّمنا المهمّ على الأهمّ ، ومعه تختل بعض معاني الخطاب ، ولا نبلغ قيمة أكبر من التبليغ .

ولعلّ أهم اعتراض قدّمه طه عبد الرحمان لهذا المبدأ ، هو إهماله لمفهوم العمل الذي به يقوّم السلوك ويوجّه إلى محاسن الأخلاق ، أو ما اصطلح عليه الدكتور بالعمل الإصلاحي ، يقول " لكن أين مبدأ التأدب عند لاكوف من معنى العمل ومن معنى الإصلاح ، فلا نكاد نجد لديها شيئا يذكر عن الوظيفة العملية و لا بالأولى عن الوظيفة الإصلاحية في القواعد التعاملية الثلاث التي اشتمل عليها مبدأ التأدب ، فلا يتطرق هذا المبدأ إلى ركن المقاصد الإصلاحية من أركان هاتين الوظيفتين و لا إلى ركن الوسائل العملية الموصلة إلى هذه المقاصد ؛ و ما لم يضع المبدأ التخاطبي في الاعتبار الحاجةَ إلى التوصل إلى هذه المقاصد الإصلاحية وإلى التذرع بهذه الوسائل العملية ، فلا طريق إلى التغيير السلوكي الذي يثمره العمل و الإصلاح "[39].

- **مبدأ التواجه واعتبار العمل عند بروان وليفنسن[40]:** شرح طه عبد الرحمان هذا المبدأ و بيّن خططه التخاطبية المتفرعة عنه ، و التي يمكن أن يلجأ إليها المتكلم كلّما دعته الضرورة ، وهي خطط تتحق بواسطة صيغ تعبيرية معلومة.

- **نقده لمبدأ التواجه واعتبار العمل عند بروان وليفنسن:** لم يسلم هذا المبدأ من نقد طه عبد الرحمان على غرار المبدأين الآخرين ، ووجّه اعتراضه ببناء نقده على مقابلة بين خطط التخاطب عندهما و بين قواعد التأدب عند لاكوف ؛ ليخلص في النهاية أن مبدأ التواجه عندهما يفضل مبدأ التأدب عندها ؛ لأنّه " يأخذ بالدلالة العملية لعنصر التهذيب من عناصر التخاطب ، فضلا عن أخذه بعنصر التبليغ "[41].

ولكن هذا المبدأ – في نظر طه عبد الرحمان – وإن كان يفضل مبدأ التادب عند لاكوف ، من حيث اهتمامه بالجانب العملي من التهذيب ، فإنّه يقصر عن تبيين الجهات غير التهديدية التي يشتمل عليها العمل التهذيبي ؛ لأنّ المتكلم فيه على هذا المستوى يكون قد دخل بنية التهديد الذي تظهر ملامحه على وجهه ، وفي بعض تعابيره اللغوية ، فتكون غايته حينئذ تلطيف عباراته والتخفيف من أثرها المهدّد ، يتحكم فيهما حيث شاء ومتى ما شاء ، وهذا الأمر هو الذي حمل طه عبد الرحمان على أن يقدّم الاعتراضين التاليين[42]:

- أولّهما : أنّه ينتهي إلى تنزيل وصف التهديد على جميع الأقوال بحيث تصير كلّها حاملة للتهديد ، إمّا بالذات وإمّا بالعرض .

- ثانيهما : أنّه يجعل العمل المقوّم للتهذيب محصورا في وظيفة التقليل من تهديد الأقوال ، بينما التهذيب المطلوب في المخاطبة أوسع من أن يكون مجرد تحصيل القدرة على تصريف التهديد عن الأقوال ، ذلك أنّ كل ما ورد في المخاطبة من الأقوال ، احتاج بطريق أو بآخر إلى أدب المتكلم ، سواء أكان هذا القول مهددا أم لم يكن كذلك.

لمّا كان التهديد السمة المميزة للأقوال في مبدأ التواجه ، ممّا يجعل العمل التهذيبي مقصورا على التقليل منه ، فإننا ندرك " كيف أنّ هذا المسلك في العمل التهذيبي لا يطلب التقرّب من الغير – بمعنى تحقيق الألفة بينه وبين غيره– بقدر ما يبذل الجهد في التحوط من التهديد ، مع العلم بأنّ الأنس و الإلف و القرب كلها من المقاصد الضرورية للتواصل الإنساني "[43] ، ويحصل التقرب بين المتكلم والمخاطب بفضل ما سمّاه طه عبد الرحمان بالأقوال المؤَمِنة التي تصدر عن المتكلم.وهذا (التقرب) الذي قصر الاشتغال عنه في الجانب التهذيبي في مبدأ التواجه.

- **مبدأ التأدب الأقصى واعتبار التقرّب**[44] : هو مبدأ أورده ليتش في كتابه مبادئ التداوليات ، بيّن مضمونه طه عبد الرحمان ، ثمّ شرح قواعد التخاطب المتفرعة عنه ، ثمّ بيّن مواطن الخلل فيه ، ومن ثمّة بنى نقده لهذا المبدأ.

- **نقده لمبدأ التأدب الأقصى واعتبار التقرّب:** مسّت الموجة النقدية لطه عبد الرحمان هذا المبدأ ، على غرار المبادئ الأخرى ، ووجّه اعتراضه ببناء نقده على مقابلة بين هذا المبدأ ومبدأ لاكوف ، ومبدأ بروان وليفنسن ؛ لأنّ ليتش اعتمد على بعض قواعد هذين المبدأين في صياغة مبدئه ، ليخلص في النهاية إلى أنّ العمل التأديبي في هذا المبدأ صار قائما على مفهوم الخدمات و المصالح ، وهو بهذه الخاصية لا يمكن أن يكون خالصا ؛ " ذلك لأنّ العمل التهذيبي الخالص من شأنه أن يقوم على المعايير و القيّم المعنوية ، فيرتقي الداخل فيه عن النظر إلى علاقته بالغير من جهة ما يحققه من أغراض "[45].

- **مبدأ التصديق واعتبار الصدق والإخلاص :** لم يكتف طه عبد الرحمان بعرض المبادئ التداولية في التخاطب لدى الغرب وشرح قواعدها ، بل اهتدى بفضل حنكته العلمية ودربته النقدية إلى صياغة مبدأ تداوليّ ، سمّاه " مبدأ التصديق " ، وتبدو مرجعيات هذا المبدأ تراثية إسلامية (وخاصة ما ذكره علماء الأصول في سياق التخاطب) ، وقد بيّن عناصره وجوانبه ، وعدّد قواعد التواصل المتفرعة عنه ، دون أن يغفل الحديث عن قواعد التعامل في هذا المبدأ[46]. يقول عن هذا المبدأ " وعلى الجملة ، فإنّ مبدأ التصديق التراثي يرتقي بالجانب التهذيبي من المخاطبة ارتقاء ، إذ بفضله يخرج هذا التهذيب من مرتبة التأدب الاجتماعي المغرض ، والذي لا يتجاوز الكياسة و المجاملة و المداراة إلى مرتبة التخلق المخلص الذي ينشد الكمال في السلوك و لأدل على ذلك من أنّ علماء المسلمين كلما اشتغلوا بهذا الجانب ، أفضى بهم ذلك إلى الاشتغال بما أسموه بـ " آفات الكلام " بوصفها من أقبح مساوئ الأخلاق ، كما أفضى بهم إلى الاشتغال بأسباب الخروج من هذه الآفات بوصف هذا الخروج هو الذي يورّث التحلّي بمكارم الأخلاق "[47] ، فيظهر من قوله أنّ مبدأ التصديق هو أشمل من المبادئ السابقة ؛ لأنّ الجانب التهذيبي فيه لا يصطبغ بالتكلف.

خلص طه عبد الرحمان في نهاية دراسته لهذه المبادئ إلى أنّ التخاطب بنية تفاعلية تقوم على ضربين من المبادئ إحداها : مبادئ تواصلية ، و الأخرى تعاملية ، وأنّ أهمّها خمسة ، دأب أصحابها على دراسة الكلام الإنساني في ضوئها ، وأشار إلى حقيقة لا يمكن إغفالها ، وهي التفاضل الحاصل بين هذه المبادئ ، وأنّ مبدأ التصديق أفضلها و أكملها ، يقول : إنّ "هذه المبادئ تتفاضل فيما بينها تفاضلا ، فمبدأ التأدب يفضل مبدأ التعاون بتقعيده للجانب التهذيبي ، ومبدأ التواجه يفضل مبدأ التأدب بتعرضه لعنصر العمل من الجانب التهذيبي ، ومبدأ التأدب الأقصى يفضل مبدأ التواجه لوقوفه على وظيفة التقرب من الغير التي يؤديها العمل ، ومبدأ التصديق يفضل مبدأ التأدب الأقصى، لأنّه يقوم بشرطي التقرب من الغير ، وهما الصدق و الإخلاص، فيكون بذلك أفضل المبادئ وأكملها جميعا؛ و لا عجب أن يكون هو الأصل الذي تقرر في الممارسة التراثية الإسلامية العربيّة ، إذ معاناتها للتخاطب كانت أصدق

حالا و أفسح مجالا ، و بالتالي لا بدّ أن يكون نظر أهلها في التخاطب أصح حكما و أبلغ أثرا ، ألا ترى أنّهم تركوا فينا الاصطلاح المتميّز (آداب المخاطبة)"[48].

خاتمة:

مزج طه عبد الرحمان بين جملة من العلوم (المنطق، و الفلسفة ، واللسانيات ونظرياتها الحديثة والمعاصرة ، وعلم الأصول ...) لدراسة ظاهرة التواصل اللغوي ، فصاغها صياغة ، أقل ما يمكن أن يقال عليها إنّها صياغة دقيقة بديعة ، اهتمّ فيها بإبراز جوانب التواصل جميعها (الخطاب ، المتكلم ، المتلقي السنن ، القناة...) دون أن يغفل أي جانب منها ، واصطنع في أثناء هذه الصياغة مصطلحات جديدة من ابتكاره و إبداعه (الوصل ، والإيصال ، والاتّصال ،و الملقي ،والمتلقِف ،و المفهِم ، والفاهم ، والتبليغ ، والتأدب و التخلّق ، والذات الناقلة ، والذات المتلقفة ، والذات المتأدبة ،و الذات المتخلقة ، و الذات المتواصلة ، والذات المتعاملة ،وغيرها من المصطلحات التي ذكرت في ثنايا الدراسة) ؛ ليقف على حقيقة هذه الظاهرة ويسبر أغوارها ، مبرزا فاعلية العقل وإمكاناته اللامحدودة ، واستغلالها في معالجة القضايا اللغوية وغيرها.

هوامش البحث:

[1] محمد الجابري ، الحوار في الإسلام ، آداب ،أساليب ، تقنيات ،ومواقف ، مؤسسة الندوي ، وجدة ، المغرب ، ط2 ،2006 ، ص117.

[2] بشير إبرير،" من لسانيات الجملة إلى علم النص "مجلة التواصل ، جامعة باجي مختار، عنابة ، الجزائر، العدد 14 ، 2005، ص87 .

[3] عبد القادر الغزالي، اللسانيات ونظرية التواصل، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط1، 2003، ص25 .

[4] عبد القادر الغزالي، اللسانيات ونظرية التواصل،ص25.

[5] ياكبسون رومان ، قضايا الشعريّة ، ترجمة: محمد الولي ومازن حنون، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط1 ، 1988م، ص27.

[6] ياكبسون رومان ، قضايا الشعريّة ، ترجمة: محمد الولي ومازن حنون، ص27.

[7] مسعود صحراوي، الأفعال الكلامية عند الأصوليين، دراسة في ضوء اللسانيات التداولية ، مجّلة اللّغة العربية ، الجزائر، العدد 10، 2004 ، ص181 .

[8] ينظر: طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط2 ، دت، ص244 .

[9] عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغير مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، إفريقيا الشرق، المغرب، 2006، ص55.

[10] اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي ، طه عبد الرحمان ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، الطبعة الأولى ، 1998 ، ص254.

[11] ينظر: اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي ، طه عبد الرحمان ، ص254.

[12] اللسان و الميزان ، ص254.

[13] اللسان و الميزان ، ص254.

[14] اللسان والميزان ، ص255.

[15] اللسان و الميزان ، ص213.

[16] اللسان و الميزان ، ص214.

[17] ينظر: اللسان والميزان ، ص214.

[18] اللسان و الميزان ، ص215.

[19] اللسان و الميزان ، ص215.

[20] اللسان و الميزان ، ص216.

[21] اللسان و الميزان ، ص216.

[22] اللسان و الميزان ، ص216.

[23] اللسان و الميزان ، ص216.

[24] اللسان و الميزان ، ص217.

[25] ينظر: القاموس المحيط ، الفيروزابادي ، دار الطباعة الحديثة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 2009 ، ص75.

[26] اللسان و الميزان ، ص217.

[27] اللسان و الميزان ، ص223.

[28] اللسان و الميزان ، ص223.

[29] اللسان و الميزان ، ص223.

[30] ينظر: اللسان و الميزان ، ص237.

[31] ينظر: اللسان و الميزان ، ص237. وما بعدها.

[32] H.P. Grice,Logique et conversation,in information grammaticale, traduit par Frederik Berthe et C.Michel Bozen,Paris ,n66,1995,PP51-71.

[33] ينظر: اللسان و الميزان ، ص239. دلالة الدلالة : هي استلزام القول لمعنى تابع للمعنى العباري مع توسط دليل مشترك تكفي في إدراكه معرفة قواعد التخاطب و من غير توقف فائدة القول على هذا التوقف " التكوثر العقلي، ص117.

[34] علم التخاطب الإسلامي ، محمد محمد يونس علي ، دار المدار الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، 2006، ص225.

[35] اللسان و الميزان ، ص239.

[36] Robin Lakoff , The Logic Of Politeness ,In papers from the ninth regionale meeting Chicago linguistic society , Chicago , 1973, pp 292-305

[37] اللسان و الميزان ، ص242.

[38] اللسان و الميزان ، ص242.

[39] اللسان و الميزان ، ص242.

[40] Penelope Brown and Stephen Levinson , Universals in Language use politeness phenomena , in goody ,Esther ,N:questions and politeness, cambridgeuniversity press, 1978, pp56-289.

[41] اللسان و الميزان ، ص245.

[42] اللسان و الميزان ، ص245.

[43] اللسان و الميزان ، ص246.

[44] Geoffrey leech , principles of pragmatics, longman ,london,1983,pp79-151.

[45] اللسان و الميزان ، ص249.

[46] اللسان و الميزان ، ص249- 253. شرح فيها هذا المبدأ شرحا وافيا.

[47] اللسان و الميزان ، ص253.

[48] اللسان و الميزان ، ص 253.